دور المؤسسات التعليمية في بناء مجتمع المعرفة

الوطن العربي انموذجا

بروفسور رياض الدباغ

خبير بيئي

تونس

المقدمة

لقد شهد العالم ومازال يشهد تغيرات اجتماعية واقتصادية وسياسية لم يسبق لها مثيل حجماً وعمقاً واتجاهاً وسرعةً بحيث اضحى التغيير، نتيجة ذلك، حقيقة الحياة وجوهرها بعد ان كان عرضاً من اعراضه

وهذا التغير فرض نفسه على التربية عموماً وعلى التعليم الجامعي على وجه الخصوص لانه المسؤول (علمياً وحضارياً) عن استيعاب هذا التغيير في حركته التطورية , وفي السابق كانت قوة الدول تعتمد على كثافتها السكانية وماتمتلكه من موارد طبيعية، الا ان العلم اصبح المتغير الجديد والمهم لانه اصبح مصدر القوة والثروة، فهنالك دول عديدة لا تمتلك موارد طبيعية وارضها قاحلة وليست لديها كثافة سكانية ولكنها اعتمدت العلم (كاليابان) فامتلكت القوة والثروة.

تكميم التعليم

لقد كان من اكبر الاخطاء التي وقع فيها مخططو التعليم في الاقطار العربية هو انهم انشغلوا بمد الحاضر إلى المستقبل حتى بدا الواقع وكأنه الانموذج الذي ينبغي أن يمدوه إلى المستقبل كما انهم انشغلوا بـ (تكميم) التعليم بارقامه وحساباته بدلاً من ان ينشغلوا بـ(عقلنة) التعليم وإرساء أسس علمية حصينة لمحتواه وهياكله.

.

لاشك ان هناك توسعاً في التعليم الجامعي، ولكن استقراء المحصلة في مجموعها قد لا يبعث على الرضا فمازال هناك تباين واضح بين التطور الكمي والتخلف النوعي وان هناك اتساعاً في الثغرة بين النظام التربوي (ومنه التعليم الجامعي) وبين مجتمع ينتزع من المؤسسة التربوية احتكار نشر المعرفة وينمي عن طريق وسائل الاتصال علاقات جديدة بين الانسان والعالم.

كيف نقيم تعليماً جامعياً للمستقبل

كيف نقيم تعليماً جامعياً للمستقبل ، يلبي احتياجات المستقبل ذلك المستقبل الذي قد لايكون امتداداً للحاضر بما يحمله من مفاجئات او تحديات بل نتوقع انه مستقبل يختلف (نوعياً) عن (مستقبل الحاضر) انه مستقبل له تحدياته التي تعصف بكل ركود او جمود وتحرك كل ساكن او خامل ويدعونا الى مزيد من الانتباه والاهتمام به والتهيؤ له.

وبهذا الاعتبار فاننا لا نريد (تعليماً في المستقبل) بل (تعليماً للمستقبل)

إن بناء تعليم جامعي بجودة مطلوبة وعلى وفق قاعدة فكرية رصينة ورؤية تربوية اجتماعية عقلانية، يتطلب النظر في المستقبل (وإطالة النظر فيه) مثلما يتطلب النظر (وانعام النظر) في الحاضر، ولكن باعطاء (الأولوية) للمستقبل في النظر إذا كان لابد من اولوية، الامر الذي يعني إن مثل هذا النمط أو الإسلوب في بناء التعليم الجامعي أكثر حرصاً من التخطيط التقليدي في استطلاع المستقبل (ضماناً لسلامة التحرك اليه.

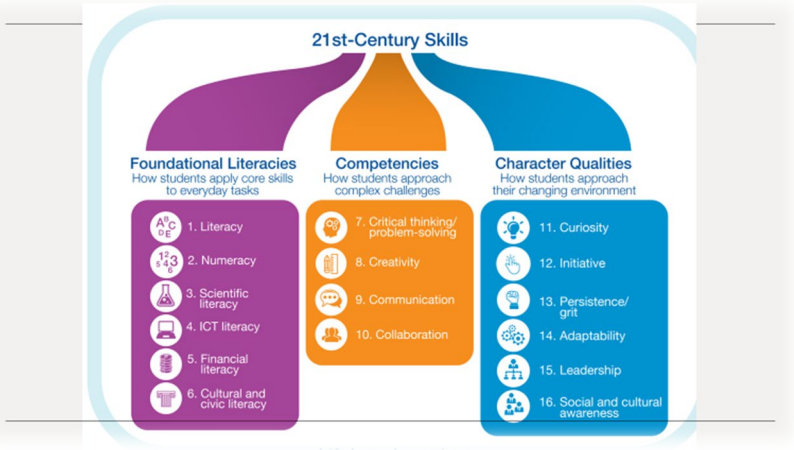

إن المستقبل كما يصوره اصحاب الدراسات المستقبلية هو تعبير عن اكبر ثورة يشهدها الجنس البشري منذ ان كان له تاريخ،

إنها صورة لا نملك في الحاضر إلا لقطات عنها، ومن هذه اللقطات إن ثورة المعلومات التي عمادها التكنولوجيا الحديثة ومعطيات وخدمات الاقمار الصناعية التي تجاوزت آثارها بتراكم هندسي آثار الثورة الزراعية والثورة الصناعية وهما الموجتان اللتان سبقتا الموجة الثالثة وهي ثورة المعلومات.

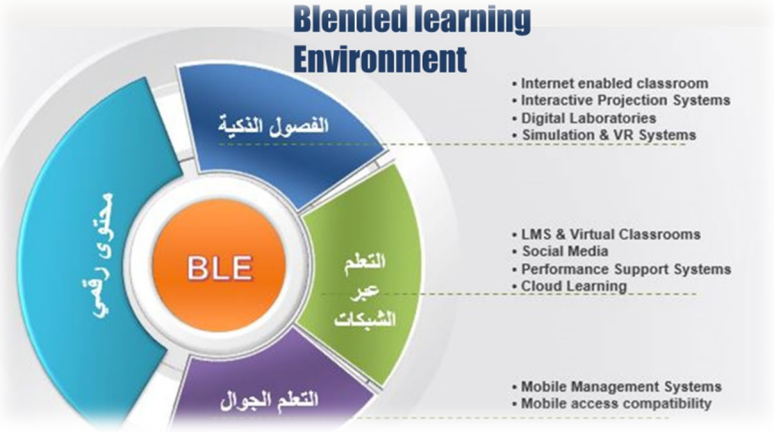

إن هذه الثورة قادتها الجامعات أو مراكز البحوث فيها ومازالت تقودها، وإنها تعد من أكبر التحديات لجامعات أخرى لو لم تتدارك موقعها منها لغدت وقوداً لها.

إذاً ماذا علينا ان نفعل لكي نقوم (بتحريك) حاضر جامعاتنا إلى مستقبل هذا المجتمع

علينا أن نعيد صياغة التعليم من خلال مناقشة جريئة لحيثيات التعليم الجامعي وعناصره (الطالب، الاستاذ، المنهج) ويدرس دراسة ناقدة لاختناقات هذا التعليم ومكامن النهوض فيه، واستلهام المستقبل لإعداد الجيل للعيش فيه وصنع الحياة فيه وقيادته، وكيف نرقى بمحتوى التعليم الجامعي من محتوى تابع إلى محتوى دافع ومن مناهج منقادة إلى مناهج قائدة تؤصل التعبير عن المجتمع في حاضرة ومستقبله، وأن نبدأ اليوم قبل الغد في إعادة النظر في سياستنا التعليمية لأن من هم في مقاعد الدراسة الآن هم بناة المجتمع بعد سنوات معدودات.

عصر الموجة الثالثة، عصر انتاج المعرفة

إن المطلوب ليس أي تعليم بل تعليمٌ من نوع جديد يهيئ الفرد والمجتمع لعصر متغير سريع هو عصر الموجة الثالثة، عصر إنتاج المعارف وعصر الاعتماد على العقل البشري ومنتجاته من الإلكترونيات الدقيقة وحيث إن الجامعات هي مواقع بناء هذه العقول، فإن المعول عليها أن تكون مراكز اشعاع حقيقية تنير للمجتمع السادر في حاضره دروب مستقبله. ولقد كان لاطلاق الشيخ محمد بن راشد ال مكتوم نائب رئيس الدولة، ورئيس الوزراء، مبادرته الرائعة في قمة المعرفة والتي اطلق عليها "بوابة المعرفة "، لتحفيز ريادة الأعمال من خلال دعم برامج الابتكار والبحث والتطوير. لأن انتاج المعرفة هو المفتاح الرئيسي لأية نهضة، والتي تؤدي بالمحصلة إلى حالة التكامل بين المعرفة والابتكار ومسارات البحث والتعليم.

كما إننا لا نريد تطويراً (أي تطوير) أو إدخال تحسينات أو تجديدات أو مستحدثات او تجارب قد تصيب وقد تخيب أو إضافة (رتوش) على ماهو قائم مع بعض التعديل أو الاضافة.

ولكننا نريد تعليماً وتعلماً يكون ركيزة تعلم عصري ينسجم مع مطالب مجتمع ينشد التقدم ومع حاجات ابنائه ومستقبل حياتهم، ليتحول التعليم بذلك إلى قوة فاعلة في صنع الإنسان الجديد المنتج للمعرفة الذي يشارك في صنع المجتمع أو في إعادة صياغة مستقبله.

سيستمر الانفجار الاعلامي الذي لا يعرف الحدود السياسية القائمة، ولا تقوى عليه وسائل الرقابة التقليدية، بفضل وسائل الاتصال المتسارعة في تنوعها وتطورها واستثمار

الاقمار الصناعية في مثل هذه الخدمات.

إن مثل هذا الانفجار يحتاج إلى التهيؤ له بتعليم جامعي ذي نظام متميز فضلاً عما يستدعيه من اجهزة ومستلزمات تكرس الابداع وتوظف العقل البشري وتنمي الفكر العلمي، وبالمستوى نفسه يقوم بتحصين الطالب من آثار هذه الثورة الاتصالاتية.

إننا نتوقع إن الجامعات ستنتبه إلى أن من الخطأ أن تستمر في سياساتها التعليمية ومنطلق احتياجات المجتمع في المستقبل وكأنها احتياجات اليوم، إذ لابد وأن تضع الجامعات سياستها التعليمية على أساس النظر إلى المستقبل وتلبية احتياجاته ومن ثم النظر إلى الحاضر (لدراسة واقعه) وبعد ذلك التفكير في كيفية تحريك هذا الحاضر إلى ذلك المستقبل. وعلى سبيل المثال فان التوجه العالمي هو لزيادة الاعتماد على الطاقة المتجددة فهل أعددنا العدة لتهيئة مهندسين متخصصين بالطاقة الشمسية أو طاقة الرياح أو الطاقة المائية أو الطاقة النووية أو طاقة الوقود الحيوي أو طاقة خلايا الهيدروجين التي ستكون طاقة المستقبل الرئيسية أو طاقة الامواج, أو اختصاصات اخرى كهندسة الاستدامة البيئية وهندسة الروبوتات وعلوم الفضاء التي ستصبح المصدر الرئيسي للطاقة والغذاء للعالم.

سيجد التعليم التقليدي نفسه في عزلة تامة، فهو إما أن يتطور أو أن (يرحل)، وستجد مؤسسات التعليم العالي نفسها محاصرة إذا لم تستجب لحاجات المجتمع المتجددة، وسيطغى دور

المؤسسات الصناعية والإدارية والتجارية في إعداد كوادرها وفنييها في حالة قصور الجامعات عن تلبية مستويات المهارة المطلوبة في تلك المؤسسات.

إن رسالة الجامعة أولاً وأخيراً هي بناء الخريج الفاعل المنتج المبدع، ولن يتحقق هذا إلا بتنشئة روحية وخلقية مستمدة من تراثنا إلى جانب تزويده بالعلم النافع المفيد.

وإذا كان الوطن يأمل في أن يكون شباب الجامعة قادة المسقبل فان من البداهة إن القادة لا يصنعهم إلا قادة، ولهذا فإن الأستاذ الجامعي مربٍ ومعلم وقائد في آن واحد.

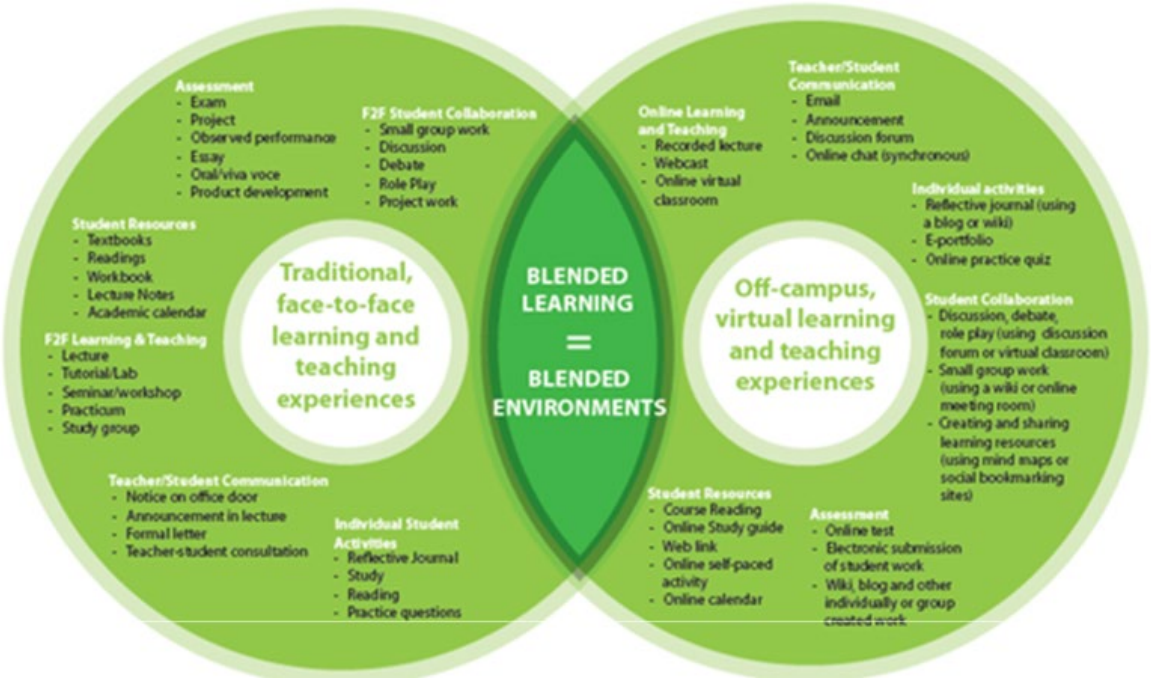

الخلاصة

وأخيراً فإن هذا العمل يشبه الوثوب من موقع ومن واقع إلى واقع أكثر تعبيراً والتصاقاً بالمستقبل، و إن الوثوب يحتم الإقعاء وهي حركة تسبق الوثوب، وحركة الاقعاء هنا مطلوبة لدراسة الواقع بما فيه ودراسة المستقبل بما ينبغي أن يكون فيه وذلك بعد النظر بعيداً إلى المستقبل أولاً لتكون الرؤية للواقع أكثر إنارة و إثارة لاستنهاض الهمة وتدارك الهوة ولرسم معالم الخطوة الأولى التي تبدأ بها المسيرة.